

الاستحواذ كمدخل نظري لفهم اشكالية علاقة المجتمع الجزائري بالإبداعات التكنولوجية

د / سعيد لوصيف

loucif_said@yahoo. fr

كلية علوم الاعلام والاتصا

- جامعة الجزائر 3 -

مقدمة

يشكل التفكير في الأجهزة التقنية انطلاقا من الدراسة الفعلية للممارسات الاجتماعية التي يطورها المستخدمون ميدان بحث مهم في فهم فعل هذه الأجهزة في المجتمع ؛ وبخاصة في المجتمعات التي يهيمن عليها النسق الاجتماعي التقليدي، لأن مثل هذا التناول يسمح للباحث من تفادي الوقوع في "قبضة" الحتمية التقناوية والاجتماعية. وقد سمحت البحوث والدراسات التي أجريت في هذا الميدان، خلال العقود الثلاثة الأخيرة، من إعطاء رؤية شاملة وتشكيل تناولات قائمة بذاتها لمسألة استخدامات الأجهزة التقنية المختلفة (الكمبيوتر، أنساق التلفزيون التفاعلي، الهاتف المحمول والإنترنت، شبكات التواصل الاجتماعي...) واستحواذها.

و ضمن هذا المنظور، فقد اتجه اهتمام هذه التناولات النظرية إلى فهم سيرورات الإبداع أحيانا، عن طريق إظهار البناءات الاجتماعية (Social construction) للأجهزة التقنية (Latour, 1981 ; Callon, 1981)، (Akrich, 1993 ; Rogers, 1989)، وأحيانا إلى فهم سيرورات البث (Rogers, 1995)، عن طريق توضيح الشبكة الاجتماعية لتداول الإبداعات التقنية

وذبوعها، وأحيانا أخرى إلى فهم سيرورات الاستحواذ على هذه الأجهزة (Scardigli, 1992 ; Toussaint, 1992 ; Chambat, 1992 ; Pronovost, 1993, 2000 ; Jouët, 1993, 2000 ; Proulx et Laberge, 1995 ; 1994 , عن طريق إبراز ميكانيزمات الإدماج في الحياة اليومية لمستخدميها (Chambat, 1994a ; Millerand, 1998, 1999a).

1. محتوى مفهوم الاستحواذ وشروط تحقيقه اجتماعيا

يعتبر مفهوم الاستحواذ (Appropriation) مفهوما متعدد المعاني (polysémique) يقع في مفترق ميادين بحوث عديدة (السوسيولوجيا، السيكلولوجيا، الارغونوميا...) ويرجع تاريخه في العلوم الاجتماعية إلى الفكر الماركسي، وبالضبط إلى نظرية الاستغلال والاعترا ب. ويشير هذا المفهوم في علم النفس الى : "فعل تملك الفرد لشيء ما، أو دمج في معاشه أو معاش الجماعة"¹ (Laulan, 1985 : 146). كما يزداد تعقد المفهوم في حالة تطبيقه في ميدان علوم الاتصال وبالأخص في حقل بحوث وسائل الإعلام وتكنولوجيات الاتصال ؛ إذ يؤكد أغلب المنظرين الاجتماعيين أن الاستحواذ لا يتحقق فعليا إلا عندما يكون الفرد أو الجماعة قادرين على إدماج الجهاز التقني أو المعرفة التي اكتسبوها منه بصورة معبرة ومبدعة في حياتهم اليومية. وهنا يظهر الاختلاف بين فكرة الاستهلاك وفكرة الاستحواذ. وعلى العموم، فإنّ توظيف هذا المفهوم في عدد من البحوث الأكاديمية، يشير ضمنا أنّ الفرد (أو الجماعة / المجتمع) قد نجح في تحقيق سيرورة تثاقف بين التقنية وثقافة المستخدم (بفعل إدماجها في سياقات اجتماعية ثقافية

¹ Laulan A-M. (1985). La résistance aux systèmes d'information. Paris : Editions Retz.

معينة) : فالمؤشر الفعلي والحقيقي لحدوث الاستحواذ هو ظهور ملامح التحول الاجتماعي الثقافي.

يحدّد (2005) Proulx أربعة شروط لتحقيق الاستحواذ، بالإضافة الى الشرط المبدئي والأولي المتمثل أساسا في امكانية الوصول للجهاز التقني والحصول عليه، وهي¹ :

1. التحكم التقني والمعرفة في الأداة،
2. الادماج الفعلي التام للتقنية في الممارسات اليومية للمستخدم،
3. أن يفتح الاستخدام المتكرر لهذه التكنولوجيا امكانيات للإبداع (أفعالا تولّد الجديد في الممارسة الاجتماعية)،
4. أخيرا، وعلى المستوى الجماعي، فإنّ الاستحواذ الاجتماعي يفترض أن يكون المستخدمون ممثلين بشكل ملائم في عملية رسم السياسات العمومية، وفي الوقت ذاته، أن يؤخذوا بعين الاعتبار في سيرورات الابداع (الانتاج الصناعي والتوزيع التجاري).²

يشير (1994) Vedel أنّ أعمال السوسيولوجيا النقدية للاستخدامات قد بينت أنّ تكنولوجيا الاعلام والاتصال هي مصبّ علاقات قوة، كما أنّها تشكل رهان سلطة عند لحظة ادخالها في سياق اجتماعي

¹ Proulx S. (2005) Penser les usages des TIC aujourd'hui : enjeux, modèles, tendances in Lise Vieira et Nathalie Pinède, eds, Enjeux et usages des TIC : aspects sociaux et culturels, t. 1, Presses universitaires de Bordeaux, Bordeaux, p. 7-20.

² « Pour s'approprier un objet technique, l'individu doit en effet démontrer un minimum de maîtrise technique et cognitive de cet outil. Cette maîtrise devra s'incorporer de manière créatrice à ses pratiques courantes. Par ailleurs, l'appropriation doit pouvoir donner lieu à des possibilités de détournements, de réinventions, voire de contributions directes des usagers à la conception des innovations techniques. » In Boudokhane. Feirouz (16 octobre 2006). "Comprendre le non-usage technique : réflexions théoriques" (En ligne). Les Enjeux de l'information et de la communication, Université Stendhal Grenoble 3, 1 p. (Page consultée le 18 octobre 2012)

أو تنظيمي معين.¹ وعليه، يكون من المفيد والضروري على حدّ تعبير Proulx (2005) أن نهتم بدراسة الصراعات التي تحصل بين الفاعلين الاجتماعيين وفهمها، بغية مراقبة تطوّر تكنولوجيات الاتصال وتوطئتها في منظمة من المنظمات أو مجتمع من المجتمعات.

يذكر Albero، أنه ينبغي تناول التقنية كأحد الأبعاد المكوّنة للنشاط الإنساني، كما يتعين حسبه أيضا، تناول الابداعات التقنية على أنها تحتوي على أبعاد اجتماعية ومعرفية، وأخيرا، اعتبار المخيال كمكوّن أساسي في تطوّر هذه التقنيات.² وعليه، يظهر أنّ عملية الاستحواذ على الأجهزة التقنية وتطوّر استخداماتها تتطلب وجود "موقع استقبال" أو ايجاد نقاط تجذّر في وسط ثقافي معرفي أو اجتماعي يسبقها في الوجود.³

يشير مفهوم الاستحواذ الى الطريقة التي يبني بها المستخدم علاقته بأداة الاتصال (Rieffel, 2005). فضمن هذه العلاقة ومن خلالها، يظهر المستخدم كفاعل يصقل استخدامه ويشخصه ويبنيه ذاتيا من خلال ثقافته وممارساته التقنية والاجتماعية الأخرى المختلفة.⁴

¹ Vedel T. (1994) « Sociologie des innovations technologiques des usagers : introduction à une sociopolitique des usages » in André Vitalis, éd. , Médias et nouvelles technologies. Pour une sociopolitique des usages. Rennes : Apogée, p. 13-43.

² Albero B. (2010) Penser le rapport entre formation et objets techniques : repères conceptuels et épistémologiques. In Gilles Leclercq ; Renata Varga. Dispositifs de formation et environnements numériques. Enjeux pédagogiques et contraintes informatique. Hermès/Lavoisier. p. 37-70.

³ Fiches E. (2010) Les logiques de production à l'œuvre dans l'espace éducatif. In Gilles Leclercq ; Renata Varga. Dispositifs de formation et environnements numériques. Enjeux pédagogiques et contraintes informatique. Hermès/Lavoisier, 2010, p. 71-90.

⁴ RIEFFEL R. (2005) Sociologie des médias, Paris. Ellipses. 223 p.

ويهدف الاستحواذ على تكنولوجيات الاعلام والاتصال الى اعطاء الأشخاص سلطة الفعل، وسلطة التكيف والابداع تجاه التكنولوجيات التي يفترض أنها تحدد لهم طرائق عمل وتنفيذ¹ : وهو الأمر الذي يؤكد على أن الاستحواذ يحتوي على بعد معرفي (Dimension cognitive) : اكتساب معارف خالصة ومعارف عملية في آن واحد. كما يؤكد (1980) De Certeau أنه لا يمكننا الفصل بين البعد الابداعي ومفهوم الاستحواذ² : فالاستحواذ بهذا المعنى هو القيمة المضافة التي تكون محصلة لسيرورة الاستخدام ونتيجة لها. وفي هذا السياق، يشير (2000) Alter أن الأفراد لا يمنحون قيمة للأداة التقنية بالقدر نفسه الذي يمنحونه لقدراتهم ومهاراتهم الابداعية التي تنتج من استخدامهم لها ؛ فالاستحواذ يحدث عندما يتمكن الفاعلون من إضفاء معنى إضافي (مشاركة ومساهمة نشطة) للتقنية في صورتها الأولية.

ولا ينصب اهتمام تناول الاستحواذ على تصميم الأجهزة التقنية، وإنما ينصب على تطبيقاتها في الحياة الاجتماعية، ووصف سيرورة تكون الاستخدامات وتشكلها ؛ بحيث يرى عدد من الباحثين أنه عوض الحديث عن "قابلية القبول" (Acceptabilité) "والأثر" (impact)، يكون من المفيد تناول المستخدم (Chambat, 1994a) والاستخدام في سياقاتهما الاجتماعية، إذ يشير (1994b) Chambat في هذا الاطار بقوله : "إن انتشار تكنولوجيات الاعلام والاتصال لا يحدث في فراغ اجتماعي ؛ كما لا يحدث ايضا عن طريق التجديد

¹ CARDON D. (2007) Innovation par l'usage (23 mars 2007), <http://www.vecam.org/article588.html>, (page consulté le 26 octobre 2012).

² De Certeau M., (1980). « L'invention du quotidien ». Paris : Arts de faire.

أو الاستبدال الراديكالي. إنه يتقاطع مع ممارسات موجودة،
يدمجها ويصقلها" (Chambat (1994b, p. 253).

يشير مفهوم "القابلية لقبول" تكنولوجية من التكنولوجيات الى ادراك الفرد لقيمة نسق من الأنساق التقنية أو تكنولوجية من التكنولوجيات. وضمن هذا المنظور، طورَ (1989) Davis et al. نموذجاً خاصاً لتقويم قابلية قبول تكنولوجيات الاعلام والاتصال «Technology acceptance Model (TAM)». يهدف هذا النموذج الى التنبؤ بالقابلية الفردية لقبول انساق المعلومات الجديدة من طرف المستعملين المستقبليين، كما يهدف أيضاً الى تشخيص الكوابح التي تعترض تبني تكنولوجية من التكنولوجيات. ويحدد (1989) Davis et al. عاملين يؤثران في قابلية القبول وهما : الفائدة المدركة (l'utilité perçue) والسهولة المدركة للاستخدام (la facilité d'usage perçue) لتكنولوجية من التكنولوجيات¹. وبالرغم من أن نموذج (1989) Davis et al. يسمح لنا جزئياً من فهم مقاصد استخدام التكنولوجيات، إلا أنه يبقى ناقصاً من حيث القوة التفسيرية في فهم التنفيذ الفعلي لهذا الاستخدام. وعليه، فإنّ التساؤل المنهجي، في مجتمعات مثل المجتمع الجزائري، نعتقد أنّها لا تزال تعيش تحت قبضة النسق الاجتماعي التقليدي وهيمنته، يكون من الضروري بمكان أن ينصب هذا التساؤل حول الفارق الملاحظ بين مقاصد الاستخدام والاستخدام الفعلي المحدود، وبين هذا الأخير وحالة تعطل سيرورة الاستحواذ : أو بما أسميته في هذه الورقة باللا استحواذ (non-appropriation)، عن طريق فهم محدّداته النفسية الاجتماعية التي

¹ Davis F. D., Bagozzi R. P., Warshaw P. R. (1989), « User acceptance of computer technology : a comparison of two theoretical models », Management Science, 35(8), p. 982-1003.

نعتقد أنها تدحض اجرائية مفهوم الاستحواذ عند استخدامه في السياق النفسي الاجتماعي للمجتمع الجزائري وبنياته الاجتماعية.

حاول (1997) Flichy تقديم نظرة نقدية لمختلف نظريات الابداع التي ظهرت في العلوم الاجتماعية : بحيث أعاب على هذه النظريات محاولتها الفصل بين الموضوع التقني والموضوع الاجتماعي. ويلاحظ Flichy أنه غالبا ما ظلت مسألة الابداع التقني غائبة عن العلوم الاجتماعية. " فالتاريخ التقني للتقنيات يجهل معرفة المجتمع ".¹ وفي نفس السياق، يشير (1967) Mauss أنه ينبغي اعتبار التقنية كظاهرة اجتماعية كلية (phénomène social total) تتأثر بالثقافة التي تنمو فيها.²

2. عن مفهوم الاستحواذ واجرائيته في السياق الجزائري

إن استهلاك تكنولوجيات الاتصال واستعمالها واستخداماتها الاجتماعية في المجتمع الجزائري لا يمكن اعتبارها مؤشرات تشير الى تحقق سيرورة الاستحواذ الاجتماعي، بل على العكس من ذلك يلاحظ أن المعطيات المادية، والتقنية، والنفسية الاجتماعية المتوفرة تؤكد على وجود ظاهرة لا استحواذ (non-appropriation)، حتى وإن كان هذا الأخير لا يلغي كليا وبصورة مطلقة وجود الاستخدام على المستوى الفردي خاصة : إذ هي حالات تفلت من قبضة الاتجاه العام الذي يميز الحالة الجزائرية وهيمنة النسق الاجتماعي التقليدي على البنيات الاجتماعية : فالاستخدام الفردي وإن وجد، يبقى في كثيرا من الأحيان استخداما محدودا (usage limité) ووسائلها.

¹ FLICHY P. (1997), « La question de la technique dans les recherches en communication » in Beaud P., Flichy P., Pasquier D. et Quéré L. (dir.), Sociologie de la communication. Paris, Réseaux. CNET, pp 243-270.

² MAUSS. M. Manuel d'ethnographie, Paris : Payot, 1967.

وإذا كان من الممكن تفسير حالات عدم الاستخدام (non-usage) بعدم تبني (non-adoption) التكنولوجيات، الذي يظهر في بعض السلوكيات النفسية الاجتماعية كالامتناع عن الشراء والامتناع عن الاستهلاك وغيرهما ؛ فإن مفهوم اللا استحواذ الذي نطرحه في هذا المقال، يشير في محتواه السيكلولوجي الى غياب التحكم التقني والمعرفي في الأداة التقنية، وفي محتواه السوسيولوجي الى ثقل هيمنة النسق الاجتماعي التقليدي كنسق مغلق معاد لديناميكيات التحول الاجتماعي وسيرورات التحديث (الجانب الأهم الذي ينصب ويركز عليه التحليل في هذا المقال).

في دراسة قام بها Bertier & Sohrabi (2004) تناول فيها سيرورة الاستحواذ، لاحظ هذان الباحثان أن تكنولوجيات الاتصال تتميز بخاصيات جذب (attracteurs) وخاصيات تنفير (répulsifs). وفي هذا الإطار يؤكد Bertier & Sohrabi (2004) أن خاصيات الجذب هي الأساس الذي يرتكز عليه الاستحواذ، في الوقت الذي تشكل فيه خاصيات التنفير أساس سيرورة اللا استحواذ. كما يعتقد هذان الباحثان أن الحاجة (besoin) هي العنصر الجوهرية في حدوث الاستحواذ من عدمه.¹ وضمن نفس المنطق، يذكر Mallein أن المنفعة تسبق حدوث الاستخدام ؛ وبالتالي ففي حالة إدراك الفرد أن استخدام التكنولوجيا لا يجلب له منفعة، فإن هذا الموقف يحدّد غياب الاستخدام والاستحواذ لديه في آن واحد.

¹ Bertier M. , Cheshmeh S. M. , « Usages des cours en ligne par les chercheurs et les enseignants chercheurs : cas du bassin Grenoblois », In Colloque TICE Méditerranée : L'humain dans l'enseignement en ligne, Nice les 26 et 27 Novembre 2004 [http : // www. isdm. univ-tln. fr/PDF/isdm18/17-chesmeh-bertier. pdf](http://www.isdm.univ-tln.fr/PDF/isdm18/17-chesmeh-bertier.pdf).

ومهما يكن وبعيدا عن نية التشكيك في صحة طرح Bertier & Sohrabi أو Mallein ، فإننا نعتقد أن تحليل هؤلاء الباحثين يبقى معقولا ومنطقيا من زاوية التناول السيكلولوجي (التحليل على المستوى الفردي)، أما إذا انتقلنا به الى المستوى السوسيولوجي (ضمن منظور بنيوي)، وبخاصة في حالة المجتمع الجزائري، فإننا نرى أنه يبقى تحليليا غير كامل، لا يفسر هذه الحالة في كل تعقيداتها ؛ بحيث يظهر أن حاجات الأفراد والمنافع التي قد يتوقعونها من استعمال تكنولوجيايات الاتصال لم تمنع حدوث الاستخدام ولم تلغ وجوده على المستوى الفردي (حالات فردية) كما سبق الإشارة اليه، وإنما يطرح الإشكال هنا على مستوى الحاجة المجتمعية ومبررات التعبير عنها، إذ نعتقد أن هذه التكنولوجيايات تشكل تهديدا (menace) للبنيات الاجتماعية القائمة وللنسق الاجتماعي التقليدي وتحولهما. فالبحث ينبغي أن لا ينصب حول فهم الحاجات والاشباكات الفردية (إدراك خاطئ للإشكال)، وإنما ينبغي أن يتجه نحو فهم التهديد (la menace) الذي تشكله هذه التكنولوجيايات على البنيات الاجتماعية للنسق الاجتماعي التقليدي، الذي بدوره يفسر سيرورة اللا استحواذ. فافتراض التهديد الذي تشكله تكنولوجيايات الاتصال على هذا النسق وبنياته، يعتبر - في نظرنا - افتراضا قويا ومدخلا نظريا مهما لفهم علاقة البنيات الاجتماعية في المجتمع الجزائري بالإبداعات التكنولوجية وتجدر سيرورة اللا استحواذ، كما من شأنه أن يقدم لنا اطارا لتفسير تعطل سيرورة الاستحواذ والتحول الاجتماعيين.

3. ما ذا نعني بالنسق الاجتماعي التقليدي ؟ :

لا نعني بوصف النسق الاجتماعي بالتقليدي، على أنه قديم ويحتوي على التقاليد فقط، وإنما " يدلّ أيضا على عجز الأفراد على التحكم في ظروف حياتهم وتوجيه مستقبلهم تبعاً لمتطلبات الساعة. وعادة ما يكون هذا النسق غير مدوّن كتابيا ؛ فكلّ شيء فيه مسجّل ومحفوظ في الذاكرة الفردية والجماعية لهؤلاء، ثمّ يعاد استرجاعه وتبليغه شفويا " (31 : Medhar, 2005). بالإضافة إلى ذلك، ومن ناحية نظرية صرفة، فإنّ وصف هذا التنظيم بالنسق يعني أنّ كل عناصره ترتبط بعضها ببعض في إطار علاقات منظّمة ومتضامنة ومنتظمة. فالنسق الاجتماعي التقليدي نسق مغلق، يقوم أساسا على روابط القرابة والعشائرية ورابطة الدم، يرفض التفتح والتحوّل الاجتماعيّين. كما أنّ الديناميكية الوحيدة التي تحرّكه هي السعي نحو إعادة انتاج ذاته ضمن أطر الثبات والجمود والهيمنة الدائمة والمستمرة على الأفراد وتجريدتهم من ذواتهم الفاعلة. وعليه، يظهر أنّ النسق الاجتماعي التقليدي هوّ في حدّ ذاته اقضاء قسري لديناميكيات التحول الاجتماعي وسيرورات التحديث.

يبدو النسق الاجتماعي التقليدي كالنقيض التاريخي للحدّثة وعمليتي التحول والتحديث الاجتماعيّتين فهو نظام ما قبل - رمزي، يفضل أعضاءه التعامل مع الجسد¹ ولا يمكنهم فهم الأشياء بعيدا عن هذا التجسيد المادي البدائي الخالص الذي لا يبذل فيه الإنسان

¹ تظهر أحد صور غياب هذه الرمزية واستفحال هذا التعامل مع الجسد في الحياة اليومية للإنسان الجزائري في الأسماء التي يطلقها على مواقف الحافلات، ومن أمثلة ذلك : "دودانة" (Dos d'âne)، "لافاج" (Lavage)، "بورثاي" (Portail)، "فيراج" (Virage).

جهد وعناء التفكير في الأشياء وجماليتها : فالتجريد والعقلانية والرمزية هي المقابل السالب لهذا النسق.

ومهما يكن، فإن النسق الاجتماعي التقليدي - في نظرنا - هو أشبه ما يكون نتاج الإرادة العضوية التي تحدث عنها Töniès، والشكل الاجتماعي الذي ينشأ منها : فالإرادة العضوية تطوّر الطائفة، لأن طبيعتها تقع على المستوى العاطفي واللاعقلاني في تحديد العلاقات، بحيث يتم التماثل فيها بصورة عاطفية. وفي هذا السياق، قد يقول قائل كيف يمكننا الحديث عن النسق الاجتماعي التقليدي في جزائر العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين (21) وزمن العولمة وتطوّر تكنولوجيات الاعلام والاتصال وشبكات التواصل... الخ. والحقيقة أن الثقافة التقليدية، وإن كنا نحجبها ونحاول بشكل منظم إخفاءها، هي التي تنتظم في الواقع حياتنا الاجتماعية منذ القدم.¹ كما نعتقد أن مرحلة ما بعد الاستعمار ليست مجرد مرحلة بسيطة تختصر في منظور زمني بعينه، يعبر عن انتقال من قبل الى بعد الاستعمار، وإنما هي عصر مجتمعي معقد يتركب من أزمنة متعدّدة. وبطبيعة الحال يؤثر في هذا العصر منظور زمني بعينه ويشكل فيه توجّها غالبا : وفي حالة النسق الاجتماعي التقليدي بالذات، فإن الماضي هو المنظور الزمني الغالب والمهيمن في المجتمع، باعتبار أن الجمود والثبات والسكون والتعلق بالمقدس هم من خصائص هذا النسق.

¹ ينبغي الإشارة في هذا المقام، أننا نحدّد مصادر النسق الاجتماعي في أربعة أنماط فرعية وهي : العصبية وروابط القرابة والدم، التنشئة الاجتماعية التقليدية وتدعيمها للهشاشة وعرقلة سيروية الفردانية، التعلّق بالأم وبصورتها وحالات قلق الانفصال عنها، وأخيرا ادراك الزمن والتوجهات الزمنية المهيمنة اجتماعيا.

4. العودة الى السياق الجزائري وبعض معطياته لفهم اللا استعواذ.

لا تساهم تكنولوجيات الاتصال في الناتج الداخلي الخام الوطني الجزائري إلا بنسبة 4% وتعد هذه النسبة ضئيلة مقارنة بنسب عدد من البلدان المتطورة، أو حتى البلدان الناشئة. كما تعد أيضا نسبة ضعيفة مقارنة بنسب بعض البلدان المجاورة (المغرب 12 %، تونس 8 %). ومن حيث عدد الجزائريين المشتركين في خط الاشتراك الرقمي غير المتماثل (ADSL) فهو يقارب 1.500.000 مشترك؛ إذ يعتبر المختصون هذا العدد ضعيفا وغير كاف بالنسبة لبلد نامي. كما يلاحظ أيضا ضعف نفاذ تكنولوجيات الاتصال في المؤسسات إذ لا تتعدى نسبة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة المرتبطة بشبكة الإنترنت 33%. كما أن نسبة هذه المؤسسات التي تمتلك موقعا لها على الشبكة لا تتعدى 13%. وبشكل عام، فإن مؤسسات قطاع تكنولوجيات الاعلام والاتصال لا تمثل إلا نسبة 3% من مجموع المؤسسات التي تتوفر على ارتباط بالشبكة. وعليه تبقى عملية الارتباط ضعيفة في المؤسسات الجزائرية مقارنة بعدد من البلدان التي تطورت فيها تكنولوجيات الاتصال بشكل نوعي. وحسب دراسة قامت بها الوكالة الوطنية لتطوير المؤسسات الصغيرة والمتوسطة (ANDPME) سنة 2011 نجد 15% فقط من المؤسسات الصغيرة والمتوسطة من مجموع 321.000 مؤسسة تستعمل تكنولوجيات الاعلام والاتصال في نشاطاتها الاقتصادية.

ومن زاوية أخرى، تشير دراسة الأمم المتحدة حول الحكومة الالكترونية (e-gouvernement) لسنة 2012 أن الجزائر تعرف تأخرا في ميدان الخدمات الحكومية المرتبطة بتكنولوجيات الاعلام

والاتصال الموجهة للمواطنين ؛ إذ تحتل الجزائر المرتبة 131 عالميا من مجموع 190 دولة شملتها الدراسة، كما أنها لا تظهر في المراتب العشرة الأولى في الترتيب الإفريقي.

الجدول 1 : البلدان الإفريقية التي تحتل المراتب العشرة الأولى إفريقيا

الترتيب العالمي لتطور الحكومة الالكترونية		مؤشر تطور الحكومة الالكترونية			
2010	2012	2010	2012	البلد	الترتيب
104	84	0. 4179	0. 5192	جزر السيشال	1
77	93	0. 4645	0. 5066	جزر موريس	2
97	101	0. 4306	0. 4869	جنوب افريقيا	3
66	103	0. 4826	0. 4833	تونس	4
86	107	0. 4518	0. 4611	مصر	5
108	118	0. 4054	0. 4297	الرأس الأخضر	6
124	119	0. 3338	0. 4212	كينيا	7
126	120	0. 3287	0. 4209	المغرب	8
117	121	0. 3637	0. 4186	بوتسوانا	9
125	123	0. 3314	0. 3937	ناميبيا	10
		0. 2733	0. 2780	المتوسط الاقليمي	
		0. 4406	0. 4882	المتوسط العالمي	

Source : United Nations E-Government Survey 2012 : E-Government for the People [http : //www2. unpan. org/egovkb/datacenter/CountryView. aspx](http://www2.unpan.org/egovkb/datacenter/CountryView.aspx) (page consultée le 26 octobre 2012).

وتقدّر دراسة الأمم المتحدة عدد مستخدمي الإنترنت في الجزائر بـ 12.50 لكل 100 ساكن، ونسبة الاشتراك في خطّ الاشتراك الرقمي غير المتماثل (ADSL) بـ 0.58 لكل 100 ساكن.

وفي دراسة أخرى (2011) أجرتها مؤسسة Business Software Alliance (BSA) التي تظم أكبر منتجي وناشري البرامج المعلوماتية (Microsoft, Adobe, Symantec, Apple, Cisco, IBM, HP) حول مؤشر المنافسة في صناعة تكنولوجيايات الاعلام والاتصال، تحصلت الجزائر على مؤشر منافسة قدر بـ 19.5 نقطة من مجموع 100 نقطة (المرتبة 65 من مجموع 66 دولة شملتها الدراسة) يعتمدها التقويم العام وفق 06 متغيرات : محيط الأعمال، البنية التحتية لتكنولوجيايات الإعلام، رأس المال البشري، محيط البحث والتنمية، المحيط القانوني، دعم تطوير صناعة تكنولوجيايات الاعلام (الجدول : 2).

وعليه، وبالنظر الى المعطيات التي وردت في هذه الدراسات والنتائج التي خلصت إليها يتبيّن ان "الاستثمار في المستقبل" لا يعني على الاطلاق ضخ أموال كبيرة وبصورة غير عقلانية لاقتناء تجهيزات تكنولوجية في ظلّ غياب رؤية شاملة وإرادة مجتمعية في التحوّل الاجتماعي تعمل الدولة على ترجمتها فعليا ضمن استراتيجيات ومخططات تجعل من تطوير تكنولوجيايات الاتصال أولوية اجتماعية وهدفا للرفقي بالإنسان - الفرد الجزائري وحرية.

¹ استوردت الجزائر في سنة 2010 مثلاً ما يفوق 460 مليون دولار في تجهيزات معلوماتية، وهو رقم يمثل أربعة أضعاف القيمة المالية للاستيراد في سنة 2000.

الجدول 2 : مؤشرات المنافسة ومتغيراتها لبعض من البلدان

الترتيب	البلد	نتيجة المؤشر العام	محيط الأعمال	البنية التحتية	رأس المال البشري	محيط البحث والتنمية	المحيط القانوني	دعم تطوير صناعة تكنولوجيا الاعلام
13	تايلاند	64.4	86.5	54.1	53.7	69.9	74.5	4.61
19	كوريا الجنوبية	60.8	79.7	62.4	58.7	46.4	78.5	61.0
31	ماليزيا	44.1	69.6	27.4	29.9	43.9	59.5	58.2
39	البرازيل	39.5	73.6	25.9	33.1	21.2	58.0	61.3
41	تركيا	38.7	75.9	20.8	38.9	19.4	62.0	54.2
43	بلغاريا	38.1	64.2	33.2	36.8	21.7	56.0	44.0
47	افريقيا الجنوبية	35.0	57.5	17.5	32.1	18.4	64.5	55.2
57	اندونيسيا	24.8	52.7	7.2	30.1	0.1	48.0	48.0
65	الجزائر	19.5	49.0	8.6	20.2	0.2	35.0	34.9

Source : IT Industry Competitiveness Index 2011 [http : //globalindex11.bsa.org/country-table](http://globalindex11.bsa.org/country-table) (page consultée le 18 octobre 2011).

وقد وصل في جانفي 2013 عدد أسماء النطاقات « dz » المسجلة لدى مركز أسماء النطاقات. الجزائر، وهي الهيئة الجزائرية المكلفة قانونا بإدارة أسماء النطاقات والمرخصة من الهيئة العالمية للأسماء والأرقام للإنترنت، إلى 4602 اسم نطاق.¹، كما أن هذا العدد لم يتطور كثيرا مع مرور ثمانية أشهر من هذا التاريخ أي في سبتمبر 2013 بحيث وصل الى 5141 اسم مسجل.² وعليه، يبقى هذا العدد ضعيفا

¹ للتعرف أكثر عن توزيع أسماء النطاقات وشروط التسجيل ومعلومات أخرى يمكن استخدام الرابط الآتي : [http : //www.nic.dz](http://www.nic.dz)

² Abderrahim H. & Zahar A. , « La gestion administrative entrave l'essor du nom de domaine ". dz » (en ligne le 11 Septembre 2013)
[http : //www.maghrebemergent.com/high-tech/internet/item/29291-la-gestion-administrative-entrave-l-essor-du-nom-de-domaine-dz.html](http://www.maghrebemergent.com/high-tech/internet/item/29291-la-gestion-administrative-entrave-l-essor-du-nom-de-domaine-dz.html) (page consulté le 10 Novembre 2013).

مقارنة بالعدد (1. 000. 000 اسم نطاق مع نهاية سنة 2013) الذي كان مبرمجا من قبل السلطات العمومية ضمن مشروع « e-Algérie 2013 »¹.

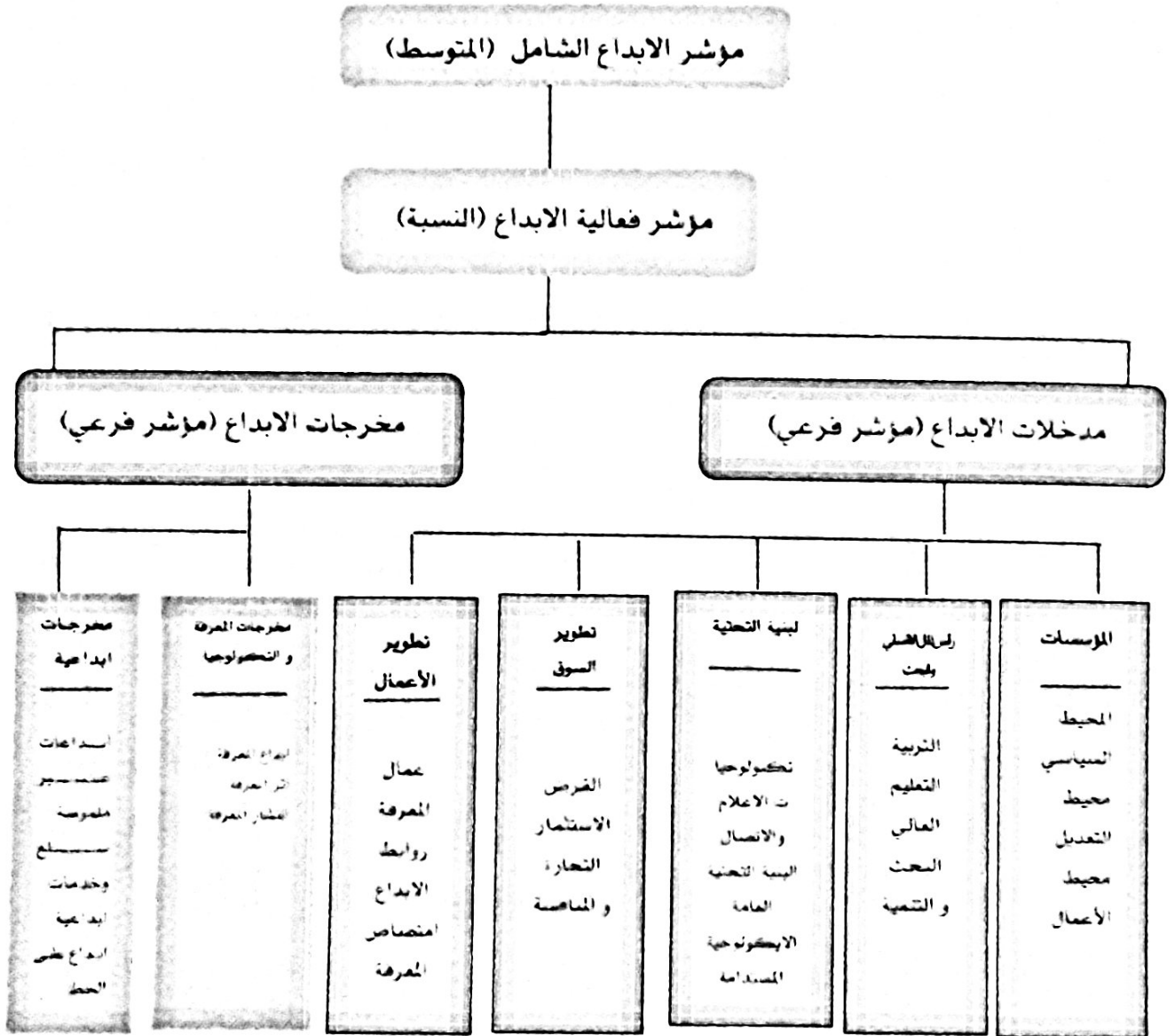
5. النسق الاجتماعي التقليدي وسيرورة اللا استعواذ : التحالف والمخاطر

يشير التقرير العالمي² حول الابداع لسنة 2012 الذي تعدّه المنظمة العالمية للملكية الفكرية (OMPI) والمعهد الأوروبي لإدارة الأعمال (INSEAD) أنّ الجزائر تحتل المرتبة 124 عالميا فيما يتعلق بالمؤشر العام للإبداع من بين 141 دولة شملها التقرير. يعتمد الترتيب العام لمؤشر الابداع على سبعة مؤشرات رئيسية، تتفرّع هي بدورها الى مؤشرات فرعية (انظر الشكل 1).

¹ المشروع تم اقتراحه في سنة 2009، تتضمن النسخة الرئيسية 600 صفحة وتبلغ قيمة الغلاف المالي المتوقع آنذاك للمشروع بـ 4 ملايين دولار. لمزيد من المعلومات حول مشروع "الجزائر الالكترونية 2013"، يمكن استخدام الرابط الآتي لتفحص ملخص المشروع : <http://www.mptic.dz/ar/IMG/pdf/e-algerie.pdf>

² للإطلاع على محتوى التقرير كاملا يمكن استخدام الرابط الآتي : http://www.wipo.int/export/sites/www/freepublications/en/economics/gii/gii_2012.pdf

الشكل (1) : عوامل مؤشر الابداع



Source : The Global Innovation Index 2013

[http : //www. globalinnovationindex. org/content. aspx?page=GII-Home](http://www.globalinnovationindex.org/content.aspx?page=GII-Home) (page consultée le 11 octobre 2013).

بالنسبة للمؤشرات الفرعية التالية والتي تهمنا في هذه الدراسة :
 البحث والتنمية، تكنولوجيايات الاعلام والاتصال (استعمال هذه
 التكنولوجيايات، الخدمات العمومية على الخط، المشاركة
 الالكترونية)، وانتاج المعرفة والتكنولوجيا، احتلت الجزائر المراتب
 126، 112 و 136 على التوالي.

ومهما يكن، فإن هذه الوضعية تستدعي منا التساؤل والتحليل والمناقشة والنقد لفهمها ومحاولة تفكيك أبعادها المعقدة ومخاطرها، والتفطن للرهانات المطروحة على مستقبل مجتمع بأكمله. ولا ندعي بأنه بمقدورنا في هذه الدراسة الإجابة عن كل هذه الانشغالات، لكن الالتزام العلمي والفكري يفرض علينا تقديم مسارات وخطوط عريضة لمحاولة تحليل نفسي اجتماعي لهذه الوضعية، وترجمة هذا الانشغال في بحوث علمية أكاديمية مستقبلية تتعمق في تناولها. فما الذي يجعل دولة تتفق أموالا بملايين الدولارات على أجهزة تقنية متطورة، ومجتمع رسمي يتهافت أفرادها على اقتناء أحدث تكنولوجيات الاتصال (الهواتف النقالة، أجهزة الاستقبال التلفزيوني، أجهزة التلفزيون ثلاثية الأبعاد، تكنولوجيات الجيل الثالث. . . الخ)، وجامعات وأساتذة ومؤسسات تستهلك مثل هذه الأجهزة، لا تتعدى علاقاتها بهذه الأجهزة - في غالب الأحيان - مستوى الاستعمال¹ (utilisation) ؟

للإجابة عن مثل هذه الأسئلة يكون من المفيد جدا أن ندرج إطار التحليل كما يؤكد عليه (Khalifaoui 2011) ضمن بعدي الفضاء والزمن² ؛ ذلك أن هذين البعدين هما مهمّين في فهم سيرورة اللاّ استحواذ. ونعني بمفهوم الفضاء (notion d'espace) في هذا التحليل

¹ يشير مفهوم الاستعمال إلى إشكالية إرغونومية، يتم فيها فهم فعل الاستخدام في وضعية ضيقة -وجها لوجه- تجمع المستخدم بالجهاز التقني، وتقييمه تبعا لمطابقته لكيفية استعمال محدّدة (Thévenot, 1993, p. 87 ; Breton et Proulx, 2002, p. 257). وعليه، فإنّ مصطلح استعمال يشير إلى فعل توظيف الجهاز التقني، بينما يشير مصطلح الاستخدام إلى الروابط "النفسية الاجتماعية" التي تربط المستخدم بالجهاز التقني.

² Khalifaoui H. (2011) « Accès aux technologies en Algérie : imposition ou appropriation ? ». African Sociological Review, 15 (1), p. 3.

تصويب الاهتمام نحو شبكة العلاقات والتفاعلات الاجتماعية ضمن النسق الاجتماعي التقليدي وسيرورة التنشئة الاجتماعية في هذا النسق وعرقلتها لسيرورة الفردانية (processus d'individuation) وارتباطها بإشكالية اللأستحواذ. أمّا مفهوم الزمن فيشير الى تعارض الأزمنة : زمن البنيات الاجتماعية المعاش وزمن تكنولوجيايات الاتصال، وسيرورات التحول (المنظور المستقبلي) ورهاناته. ومما لا شك فيه أن هذا التناول من شأنه أن يقدم فهما أشمل للسياق الجزائري.¹

إن النسق الاجتماعي التقليدي غير مبرمج أصلاً للبحث عن الابداع والاستحواذ، بل على العكس من ذلك نجد فيه البرمجة الثقافية موجّهة نحو تكريس اللأ استحواذ واللاً ابداع والفضل واعتمادهم كآليات عطالة لإعادة إنتاج ذاته : فالإفشال (faire échec) والفضل هنا هما القاعدة، والإنجاح (faire réussir) والنجاح هما الاستثناء ؛ ذلك أن ارادة الانجاح والاستحواذ والرغبة فيهما خاصيتان تميّزان الأنساق الاجتماعية الحديثة ؛ فالفرد في مثل هذه المجتمعات ينمو وينشأ ضمن مؤسسات اجتماعية تقوم على قيم الأداء والانجاز وثقافتهم، وتعمل على ترسيخهما فيه. ولعلّ مؤشرات

¹ يقول في هذا الشأن عند حديثه عن عوائق الاستحواذ في السياق الجزائري ما يلي : « Ce rappel (...) nous a paru nécessaire pour comprendre ce qui se passe dans les contextes qui, comme ceux d'Algérie, peinent à « embrayer » pour passer de l'utilisation à l'appropriation. Société consommatrice plutôt que productrice de technologies, l'antagonisme entre normes prescrites et pratiques sociales y est doublement amplifié : d'une part, par le décalage entre le « système sociotechnique » (Trist & Bamforth, 1951 ; Trist & Emery, 1960) importé et le milieu social local et, d'autre part, par la persistance, notamment chez les cadres chargés d'implanter les dispositifs acquis, d'un imaginaire inhibant, marqué par une tendance à la déification de la technologie, avec les conduites de déterminisme technologique qui en résultent. À cela s'ajoute une instabilité structurelle qui affecte l'inscription des technologies tant dans l'espace que dans le temps. » (Khalifaoui, 2011 : 5, 6).

التحوّل الحداثي للبدن الناشئة يقدّم لنا صورة عن سيرورة التحوّل الاجتماعي والاستحواذ على التكنولوجيا وتطويرها.

تمثل البلدان الناشئة 1/5 النفقات العالمية في البحث والتنمية.¹ ففي 15 سنة تمكنت الصين على وجه الخصوص من مضاعفة استثماراتها في البحث والتنمية 27 مرّة. وتتوقع الحكومة الصينية مع حلول سنة 2020 أن تخصّص 5.2 % من ناتجها الداخلي الخام للبحث والتنمية في الصناعات ذات التكنولوجيا العالية (الاتصالات، الاعلام الآلي، المكونات الالكترونية...). وخلافا لبعض هذه التوجهات العالمية في ميدان البحث والتنمية وتطوير تكنولوجيات الاتصال، تحصلت الجزائر في التقرير العالمي حول تكنولوجيات الاعلام والاتصال لسنة 2012 « The global information technology report 2012 » على المرتبة 118 من بين 142 دولة ؛ بحيث يشير التقرير أنّ الجزائر وللأسف لا تستفيد من تأثيرات هذه التكنولوجيات على اقتصادها ؛ ذلك أنّ ضعف مستوى تطوّر البنيات التحتية لتكنولوجيات الاتصال والنقص الكبير في الكفاءات المتاحة، يترجم ضعف نسبة امتصاص هذه التكنولوجيات من قبل المؤسسات الجزائرية وغياب سيرورة الاستحواذ عليها.

وعلى أية حال، فإنّ الافتراض القوي الذي يطرح ضمن اطار تحليل نفسي اجتماعي، يظهر لنا أنّ الانسان الجزائري يبني علاقته

¹ Rapport du Conseil d'analyse économique : Les marchés de brevets dans l'économie de la connaissance - 2010.

بالتكنولوجيا على أساس أنها شيء خارجي يتحدّد محتواه بعيدا عن الذات فهو يرى في نفسه ذلك القاصر الذي لا يملك فعل أيّ شيء أمام قوّة هذه التكنولوجيا، وعاجز عن التدخل في تحديد مساراتها واستخداماتها. كما يبيّن التحليل ذاته أنّ هذه الوضعية تضرب بجذورها في عمق النسق الاجتماعي التقليدي، الذي يعادي اعلان ميلاد الفرد الجزائري، المستقل بذاته والقادر على الفعل، والمستحوذ المبدع، لحساب الشبكات الاجتماعية التقليدية التي بدورها تكرّس حالة الهشاشة النفسية الاجتماعية لديه. وبالتالي، فإنّ هذه الحالات لا يمكن لها بأيّ حال من الأحوال أن تكون مصدرا للاستحواذ على التكنولوجيا والمساهمة الفعالة في تطوّرها انطلاقا من استخدامات اجتماعية حديثة، فهي على العكس من ذلك، ترسخ الّا استحواذ كقيمة اجتماعية معيارية لإعادة انتاج النسق الاجتماعي التقليدي وهيمنته.

أمّا فيما يتعلق بالبعد الزمني، فإنّ أغلب الباحثين يؤكدون على أهمية الزمن وادراكاته في تحديد علاقات الأفراد والمجتمعات بالإبداعات التكنولوجية. وبالفعل، يظهر أنّ للزمن دورين مهمّين : يرتبط الأول بالديمومة في استخدامات التكنولوجيا والاصرار على دمجها في الحياة الاجتماعية اليومية ؛ ويرتبط الثاني، بالقدرة على جعل هذه الاستخدامات، تشكل ذاكرة ورأس مال معرفيين وعمليين يحققان الاستحواذ.

ومهما يكن، ففي الحالة الجزائرية، إننا نعتقد أن اللا
استقرار الاجتماعي¹ وامتداداته السياسية والاقتصادية، شكل دوما
دعامة للعلاقة المتقطعة والحدثية التي ينسجها الانسان الجزائري
بالزمن، وهي وضعية نفسية اجتماعية تغيب فيها الديمومة ويغيب
فيها التراكم المعرفي والعملية : فهي بمعنى آخر الحليف المنطقي للـ
استحواذ (non-appropriation).

¹ من أهم مظاهر هذا اللا استقرار الاجتماعي هو العنف الاجتماعي المادي والرمزي الذي يميز النسيج
الاجتماعي التقليدي ككالية تصاد أن تكون الوحيدة في تحديد العلاقات الاجتماعية بين الأفراد.